# محاضرة

# حبل اللّٰه الممدود

## -القرآن العظيم-

فضيلة الشّيخ عبد الرزاق البدر

حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و سيئات أعمالنا، من يهديه الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديه له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين .

أمَّا بعد؛ فهٰذه أمسية طيِّبة وساعة كريمة في هٰذه الليلة الفاضلة من ليال شهر رمضان المبارك، مع موضوع جليل القدر، عظيم الفائدة، كبير النفع، له صلةٌ بشهرنا الكريم وموسمنا الفاضل، وعنوانُ هٰذا اللقاء:

**حبل الله الممدود**

وقبل الدُّخول في موضوع هٰذه المحاضرة أقدِّر وأشكر للإخوة الكرام القائمين علىٰ واحة الإيمان في القَصباء، جهدَهم المبارك وسعيهم المشكور وكريم رغبتهم في أن أشارك في هٰذا اللِّقاء وهٰذا البرنامج الذي في ما نسمَع ونعلم تُبذل فيه جهود كبيرة لاستثمار وقت هٰذا الشَّهر ولياليه المباركة في علمٍ نافع وفوائد عظيمة تعود علىٰ النَّاس بالخير والفائدة.

ويطيبُ لي كذلك أن أشكر صاحب السُّمو الشَّيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشَّارقة علىٰ رعايته الكريمة لهٰذه الواحة الإيمانية الطَّيِّبة النَّافعة، وكذلك دعم دائرة الشُّؤون الإسلامية في الشارقة ممثلة برئيسها الشَّيخ صقر بن محمَّد القاسمي، وأيضًا أشكر الشَّيخ الأستاذ مروان السركال وإخوانه في قناة القصباء، وأشكر أيضا إخواني الحضور حضورهم، وأسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يمدنا جميعًا بالعلم النَّافع والتوفيق لما يحبه ويرضاه من سديد الأقوال وصالح الأعمال .

موضوع هٰذا اللِّقاء -أيُّها الإخوة الكرام- حبل الله الممدود، وهٰذا العنوان من اختيار الإخوة القائمين علىٰ هٰذه الواحة الإيمانية، وأعظم ما يكون في واحة الإيمان تغذيةً لها، ومدًّا لثمارها وفروعها وآثارها كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد، وحبل الله الممدود الذي هو عنوان هٰذه المحاضرة هو كتابُ الله - جلَّ وعلا - القرآن الكريم، وقد جاء تسميته بهٰذا الاسم في السُّنَّة الصَّحيحة الثَّابتة عن رسول الله ﷺ فقد روىٰ الإمام أحمد في «مسنده» من

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**كتابُ الله هو حبل الله الممدود من السَّماء إلىٰ الأرض**»، وروىٰ الإمام مسلم في «صحيحه» من حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال: «**ألا و إنِّي تاركٌ فيكم ثقلين: أحدهما كتاب الله عز وجل وهو حبل الله المتين، من اتَّبعه كان علىٰ الهدىٰ، ومن تركه كان علىٰ الضلالة**».

وروىٰ ابن أبي شيبة في «مصنفه» بإسناد علىٰ شرط مسلم من حديث أبي شُريح الخزاعي رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «**أبشروا أبشروا.. أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله؟**»، قالوا: نعم، قال: «**فإن هٰذا القرآن سببٌ- أي حبلٌ - طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسَّكوا به فإنَّكم لن تضِلُّوا ولن تهلِكوا بعده أبدًا**».

معاشر الإخوة الكرام، يأتي هٰذا الموضوع العظيم بهٰذا العنوان (حبل الله الممدود) في هٰذه الأيَّام المباركات أو الليالي المباركات ليال شهر رمضان المبارك، وكلُّنا نعلم أنَّ شهر رمضان له خصوصيَّة بالقرآن الكريم، يقول الله - جلَّ وعلا-: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[البقرة:١٨٥]، ويقول - جلَّ وعلا-: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان:٣]، ويقول - جلَّ وعلا -: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر]، فالقرآن الكريم أُنزل في شهر رمضان وهو أعظم كتاب أنزله الله سبحانه وتعالى علىٰ أعظم رسول في أفضل شهر وفي أفضل ليلة، فليلة القدر هي خيرُ ليالي السَّنة علىٰ الإطلاق وهي الليلة التي أنزل فيها القرآن، والمرادُ بإنزاله أي إلىٰ بيت العزَّة في السّماء الدّنيا؛ لأن القرآن نزل جملة واحدة في ليلة القدر إلىٰ بيت العزَّة ثم نزل منجّمًا خلال عشرين سنة بحسَب الأمور والأحوال والوقائع والحوادِث ونحو ذلك، كما جاء بذلك الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن غيرِه في تقرير هٰذا المعنىٰ.

وهٰذا يُبيِّن لنا أنَّ شهر رمضانَ المُبارك له خصوصيَّة في القرآن، ولهٰذا كان جبريل يأتي نبيَّنا ﷺ في هٰذا الشَّهر ويُدارسه القرآن، وقد جاء في الحديث الصَّحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان أجود النَّاس وكان أجود ما يكون في رمضان حينما يأتيه جبريل يُدارسه القرآن، ولهٰذا أيضًا كانت عِناية السَّلف بالقرآن تعظم في هٰذا الشَّهر -شهر القرآن- وموسم القرآن، وكانوا يتنافسون علىٰ ختْمِ كتاب الله عز وجل في هٰذا الشَّهر الفاضل مرَّاتٍ عديدة مع التَّدبُّر لآياته، والتَّأمُّل في دلالاته، ومجاهدة النَّفس علىٰ العمل بهٰذا الكتاب العظيم؛ كتاب الله جلَّ وعلا.

والقرآن -أيُّها الإخوة الكرام- كتابٌ أنزله الله -تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ- هداية للبشرية، وصلاحًا للنَّاس، وذكرىٰ للمؤمنين، وشفاءً لما في الصُّدور، وضياءً ونورًا وبركة لمن كان من أهله، قال الله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، وقال - جل وعلا- : ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾﴾[الإسراء].

وهٰذا الكتاب العظيم أنزله اللهُ- تبارك وتعالىٰ- لعباده ليكون منهجًا لهم في حياتهم، في أخلاقهم، في آدابهم، في معاملاتهم، في تعبدهم وتقربهم إلىٰ الله ﷻ، ولهٰذا لما سُئِلت أمّ المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن خلق نبيِّنا ﷺ قالت : (كان خُلُقه القرآن)، ومعنىٰ كلامها - رضي الله عنها وأرضاها – (كان خلقه القرآن) أي أن كل ما تراه في القرآن من عبادةٍ وخلق وأدبٍ ومعاملة إلىٰ غير ذلك، كلّ ذلكم اتَّصف به نبيِّنا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- علىٰ التَّمام والكمال، فكان أعبد النَّاس لله، وأكثرهم لله خشية، وأعظمهم تقوىٰ لله ﷻ وأكملهم خلقًا، وأحسنهم أدبًا، وأطيبهم معاملة، وكلُّ ما في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ من عبادةٍ وخُلق وأدب وغير ذلك أتىٰ به وتممّه وكمّله صلوات الله وسلامه عليه .

وهٰذا القرآن هو زاد المؤمنين، وروح قلوبهم، وغذاء نفوسهم؛ بل إن حياة الإنسان الحقيقية لا تكون إلاّ بالقرآن الكريم، لا يحيىٰ العبد حياةً حقيقة إلا بهٰذا الكتاب العظيم، الكتاب المبارك، ولهٰذا سمَّىٰ الله - جلَّ وعلا - كتابه روحًا في غير ما آية؛ قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾[الشورىٰ]، وقال - جلَّ وعلا - في أوائل سورة «النحل»، سورة النِّعم كما يسميها بذلك أهل العلم؛ لكثرة ما عدد الله فيها من نعمه، بدأ الله سورة النِّعم بقوله : ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾، سمَّىٰ ربُّنا- جلَّ وعلا - وحْيه الحكيم وذكره العظيم والقرآن الكريم، سمَّاه روحًا، لماذا؟ لأنَّ حياة القُلوب الحقيقية إنَّما تكون بهٰذا القرآن؛ بل سُمِّي جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي ينزل بالوحي سمي أيضًا الروح، نزل به الرُّوح الأمين ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾ أي جبريل ﴿فِيهَا﴾[القدر]، سمَّاه روحًا؛ لأنَّه نزل بالقرآن الذي به حياة القلوب، ويجب علىٰ كلِّ واحد منا أن يعلم أن حياته الحقيقة في هٰذه الدنيا وفي الآخرة بحسب حظه ونصيبه من هٰذا الكتاب المبارك علمًا وعملًا وتطبيقًا.

ولهـٰذا يقول الله جلَّ وعلا في سورة «الحديد»: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾، تأمَّل أخـي -رعـاك الله- قـول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ ذكر هـٰذا سبحانه عقب قوله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أتبع هـٰذا بإخباره سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يحيي الأرض بعد موتها قال: إنَّ في ذلك لآيات لعلكم تعقلون، فيها آيات عظيمـة، آيـات جليلة؛ أي كما أن الأرض الميِّتة تحيا بالماء إذا أنزل الله عليها الماء اهتزَّت وربت وأنزلت مـن كـل زوج بهيج، فكذلك القلوب لا يمكن أن تحيىٰ إلَّا بـالقرآن، لا يمكـن أن تـدُبَّ فيهـا الحيـاة وأن تـذوق طعـم الحياة وأن تتلذذ بسعادة الدنيا والآخرة إلا بهـٰذا القرآن، وبدون القرآن والعمل به يعيش الإنسان في هـٰذه الحياة عيشةً بهيمية ليست عيشـة حقيقيـة، ولهــٰذا يقـول الله: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾[طه]، نفي الضَّلال فيه إثبات الهداية، ونفـي الشـقاء فيـه إثبـات السـعادة، فمـن أراد لنفسه هدايةً وسعادةً فعليه بـالقرآن، ويقـول جـلَّ وعـلا: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾[طـه]، أي: إنَّما أنزلناه عليك لتسعَد، وقد قيل في بعض كتب التَّفسير أن جماعة من المشركين قالوا في حـق نبيِّنـا ﷺ وأصحابه، قالوا: إنَّ الله أنزل عليه هـٰذا القـرآن ليشـقىٰ بـه هـو وأصـحابه، فقـال الله: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾﴾، أي: إنَّما أنزلنا عليك القرآن لتسعَد، ولهـٰذا السَّـعادة الحقيقيـة وهنـاءة العـيش وذوق واحة الإيمان وحلَاوة الدِّين إنَّما يكون ذلك بالقرآن الكريم كتاب ربِّنا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ولهـٰذا جاء في القرآن آياتٍ عديدة فيها أمر الله سبحانه عباده بتدبُّر هـٰذا القـرآن حتىٰ يـذوقوا حلاوتـه؛ لأنه لا يذوق حلاوة القرآن ولا ينتفع به إلاّ من تدبر آياته، وعقَل مضامينه، وفهـم معانيَـه، ولهــٰذا يقـول إمام المفسرين وشيخ المفسرين الإمام الطَّبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول كلام معناه: كيف يذوقوا حلاوة القرآن مـن لا يفهم معناه !

ولهـٰذا جاء في القرآن آيات كثيرة فيها الأمر بتدبُّر القرآن الكريم، يقول الله تعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[النساء]، ويقول جل وعلا: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾[محمـد]، ويقـول جـل وعــلا: ﴿كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ مُبَـٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَـٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢٩﴾﴾[ص]، وأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن سبب ضلال من ضلَّ وهلاك من هلك وضياع من ضـاع؛ البعد عـن القـرآن وعن تدبره، وبيَّن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن هؤلاء وأمثالهم لـو تـدبَّروا القـرآن لوجـدوا فيـه شـفاء الصُّـدور وصـلاح

القلوب وسعادة الدنيا والآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾[المؤمنون]، قال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ ! أي لو أنهم تدبروا القول وعقلوا معناه وفهموا دلالاته لَما حصل لهم هٰذا النكوص علىٰ الأعقاب، ولَما حصل لهم هٰذا الضَّلال والضَّياع والفساد!! وهٰذا يدلُّنا دلالة بينة أن ضياع الإنسان وفساده وضياعه وانحرافه وزيغه بحسب بعده عن هٰذا الكتاب العظيم وهٰذه الواحة الإيمانية المباركة التي فيها سعادة العبد في دنياه وآخراه.

وقد سمَّىٰ الله ﷻ القرآن الكريم في مواضع عديدة، سماه ذكرىٰ، ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾﴾ [الطلاق]، ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾﴾[ص]، سمَّاه بهٰذا الاسم لماذا ؟ لأنَّ القرآن فيه ذكر خبر من قبلنا، ونبأ ما بعدنا، فيه ذكر أسماء ربنا ﷻ وأوصافه، فيه ذِكر الجنَّة والنَّار، فيه ذكر الأحكام والأوامر والنَّواهي، فيه ذِكر القلوب، فيه ذكر ما فيه فلاح العبد وصلاحه في دنياه وأخراه، وإذا كان القُرآن سمّاه ربنا - جلَّ وعلا- في مواضع عديدة (ذكرىٰ) فإنّ من ابتعد عن القرآن الكريم كان من الغافلين! ولا يكون العبد بعيدًا عن الغفلة سالمًا منها إلَّا إذا كان له حظٌّ ونصيبٌ من هٰذا الكتاب المبارك الذي فيه حياة القلوب وذكر العالمين وفلاحُهم وسعادتهم في الدُّنيا والآخرة.

وقد وصف الله ﷻ هٰذا القرآن بأنَّه لو أنزله الله علىٰ جبل لتصدَّع، قال الله تعالىٰ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[الحشر:٢١] الجبل الأصم لو أُنزل عليه هٰذا القرآن لتصدَّع من خشية الله، ثم تكون كثيرٌ من القلوب، تلك المُضغة الصغيرة تكون أقسىٰ عياذًا بالله -تبارك وتعالىٰ- من الجبل، ترِدُ عليها زواجر القرآن وقوارع القرآن ومواعظ القرآن وتذكير القرآن ولا يتحرَّك فيها ساكنًا؛ بل تبقىٰ علىٰ قسوتها فهي كالحجارة أو أشدُّ قسوة – عياذًا بالله -، ولهٰذا ذِكْر القلوب ويقظة النفوس وصلاحها إنما يكون بارتباط العبد بهٰذا القرآن عندما يكون القرآن ربيعًا للقلب يحيا معه العبد حياةً جميلة حياة هنيئة حياة سعيدة، وفي الدُّعاء المأثور دعاء طرد الهم والغم المأثور عن نبيِّنا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- قال: «**أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك= أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي**»، وتأمل أخي وفَّقك الله هٰذه المعاني التي هي ثمار القرآن و آثاره، قال: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري**»، لما ذكر القلب قال: «**ربيع قلبي**» ولما ذكر الصدر: قال «**نور**

**صدري»**؛ لأنَّ الصَّدر محيط بالقلب فإذا أضاء الصدر انعكس ضياءه علىٰ كل ما في داخله، ولما ذكر القلب ذكر الربيع ؛ لأن القلب هو منبع الفضائل عندما يوفَّق للصلاح والزكاة، «**ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»، وهـٰذا فيه إشارة لطيفة إلىٰ أن القلب عندما يصلح بالقرآن يكون ربيعًا، والربيع يثمر أطايب الثمر وأجمل الزهور وأحسن الورود وأبهىٰ الروائح يصبح ربيعًا، قال: «**وأن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني**»، وهـٰذه فائدة عظيمة من فوائد القرآن أن جلاء ما يكون في القلب من أحزان وآلام وهموم وغموم، إنَّما يكون بهـٰذا الكتاب العظيم، الذي هو في الحقيقة كتاب السَّعادة: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢﴾[طه]، ولا يمكن أن تسْعَد بالقرآن بمجرّد وضعه مزخرفًا في رفٍّ في البيت أو في موضع جميل، لا يمكن أن يذوق الإنسان السَّعادة التي تُستمد من هـٰذا الكتاب بهـٰذا، ولا يمكن أن يذوقها بمجرد هَذِّهِ قراءته بدون تدبر ولا تعقل ولا تفهم ولا عملٍ بهـٰذا الكتاب؛ بل سعادة القرآن وحلاوة القرآن وهناءة العيش المحصلة بالقرآن الكريم إنما تكون بتدبر القرآن وتعقل معانيه والعمل بما فيه.

ولهـٰذا قال غير واحد من أهل العلم في معنىٰ قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ﴾[البقرة:١٢١] ، متىٰ يكون العبد تاليًا لهـٰذا القرآن حقّ التلاوة ؟ قالوا بثلاثة أمور:

**الأمر الأول**: قراءة القرآن و حسن ترتيله وحفظ ما تيسر منه.

**الأمر الثاني**: التدبر و فهم الخطاب، ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[ص:٢٩] ، ﴿أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[محمد:٢٤]، ويكون همه وهو يتلوا القرآن ليس متىٰ أختم السورة ؟ متىٰ أنتهي من التلاوة ؟

وإنَّما يكون همه وهو يتلوا القرآن متىٰ أعقل عن الله الخطاب ؟ متىٰ أفهم كلام الله ؟ متىٰ يتأثر قلبي بالقرآن ؟ متىٰ أعمل في القرآن ؟ متىٰ أكون من الصادقين الموصوفين بذلك في القرآن؟ من التوابين، من المنيبين، من الذاكرين، من المصلين، من القانتين، من المتصدقين.. إلىٰ آخره متىٰ أكون كذلك؟ يقرأ وهو يجاهد نفسه علىٰ هـٰذه المعاني، لا يكون همه وهو يقرأ متىٰ أختم ! بل يكون همه وهو يقرأ متىٰ أعقل، متىٰ أفهم، متىٰ أتأثر بالقرآن الكريم؟، ولهـٰذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في بعض كتبه: قراءة آية بتدبر خيرٌ من ختمه بدون تدبر، آية واحدة تقرؤها وتتدبرها وتداوي بها نفسك وتتأمل في معانيها.

ولهـٰذا كان بعض السلف يقوم الليل في آيةٍ واحدة، نبينا -عليه الصلاة والسلام- قام ليلة بآية

واحدة، وجاء في الصحيح أنه ذكر له رجل قام ليلة بـ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾[الإخلاص]، وكأن السائل الذي يخبر النبيﷺ يتقال ذلك، فقال النبي ﷺ: «**والذي نفسي بيده، إنَّها لتعدل ثلث القرآن**».

فعندما يتدبر الإنسان ويتأمَّل ولو آية واحدة تعيش معها ليلة تداوي بها نفسك، تعالج بها مرض قلبك، تقوي بها إيمانك، تقوي بها توكلك، تقوي بها صدقك مع الله، صلتك بالله - تبارك وتعالىٰ- خيرٌ لك من أن تمضي هـذًّا بدون عقل وبدون فهم.

فالأمر الثاني التدبر.

**والأمر الثالث**: العمل بالقرآن الكريم .

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ: (أُنزل هـٰذا القرآن ليُعمل به، فاتَّخذ الناسُ قرَاءتـه عمـلا)، الـذي أنزل لأجل القرآن أن نعمل به، أن نكون من أهـل القـرآن، ولا يمكـن أن يكـون العبـد مـن أهـل القـرآن بمجرد حفظ حروفه أو تلاوة آياته وسورة فقط، بل لابـد مـن الفهـم للمعـاني، ولابـد مـن العمـل بهـٰذا الكتاب العظيم، وقد تحدث الإمام الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض قراء زمانه وأنتم تعلمون أن الحسـن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالىٰ من كبار العلماء التابعين من أهل القرن الذي يلي قرن الصحابة، فكان يتحـدَّث عـن جماعة من القراء في زمانه، يقول: (يقول أحدهم: قرأت القرآن كله ولم أسقط منه حرفًا) مقصوده ضبطه للتلاوة، للمخارج، للترتيل، إتقان الحفظ لا يسقط منه حرفًا (يقول أحدهم قرأت القرآن كله ولم أسقط منه حرفًا، وقد أسقطه والله كله لا يرىٰ عليه القرآن لا في خُلقٍ ولا عمـل) ثـم قـال الحسـن: (إذا كانـت القراء مثل هـٰذا لا كَثَّرَ الله في الناس مثل هؤلاء، ما هؤلاء بالقراء ولا العلماء ولا الورعة، لو كانت القـراء مثل هؤلاء لا كَثَّرَ الله في الناس مثل هؤلاء).

ليست تلاوة القرآن بمجرد القراءة أو الحفظ لحروفه؛ بل لا بد من التـدبر ولا بـد أيضًـا مـن العمـل، والعمل بالقرآن يسمّي تلاوة، العمل بالقرآن الكريم يُسمىٰ تلاوة من تـلاوة القـرآن أن تعمـل، إذا صـلَّينا صلاتنا هـٰذه تلاوة للقرآن، إذا صُمنا صيامنا هـٰذا تلاوة للقران،إذا تصدقنا إلـىٰ غيـر ذلـك مـن الأعمـال هـٰذا يعد تلاوة للقرآن، تـلاوة للقـرآن بمعنـىٰ اتبـاع وعمـل والله عَزَّوَجَلَّ يقـول في القـرآن: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾[الشمس]، يعني تبعها، الاتباع من معاني التلاوة، فاتباع القرآن يعـد تـلاوة للقـران، والقـرآن إنَّمـا أنزل لأجل ذلك، لأن يعمل به العبد، تقرأ القران تمر بك أوصال وتمر بك أوامر وتمر بك نـواهي وتمـر بك زواجر وتمر بك قوارع وتمر بك مواضع وتمر بك تذكيرات وتمر بك مصائر ما حظك منهـا؟؟ ومـا

تنصيبك منها؟؟ أوامر الله في القرآن التي تقرأها وتمر عليها وتتلوها ما حظك منها؟ نواهيه - جل وعلا- ما نصيبك منها؟ وما حظك منها؟

يقول ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ فارعها سمعك؛ فإنَّه إمَّا خير تؤمر به، أو شر تُنهىٰ عنه).

أمَّا إذا كنت لا ترعها سمعك وتمر وكأن الأمر لا يعنيك، وكأن الخطاب لغيرك متىٰ يستفيد الإنسان للقرآن؟ ومتىٰ يكون للقرآن الأثر عليه؟

ولهٰذا يحتاج من هٰذا المقام من العبد إلىٰ مجاهدة لنفسه علىٰ تحقيق هٰذه المعاني الثلاثة لتلاوة القرآن الكريم، بحُسن القراءة والحفظ والتلاوة للقرآن وبحسن التأمل والتدبر والفهم لمعاني القرآن وبالعمل بالقرآن الكريم، وقد مر معنا قول أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا لما سألت عن خُلُقِ نبيِّنا ﷺ قالت: (كان خلقه القرآن).

ثم إنَّ هٰذا القرآن وصفه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنَّه شفاءٌ لما في الصُّدور: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾[الإسراء]، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ ﴾ [فصلت:٤٤]، ويقول جل وعلا: ﴿وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[يونس:٥٧].

القرآن شفاء؛ يقول قتادة رَحِمَهُ اللهُ: (هٰذا القر آن فيه ذكر الداء وذكر الدواء، أمَّا الدّاء فالذنوب، وأما الدواء الاستغفار).

القرآن شفاء لكن متىٰ يحصل الاستشفاء بالقرآن؟ متىٰ يتحقق لك التداوي فعلا بالقرآن؟ متىٰ تكون تداوي قلبك بالقرآن؟ الأمراض التي تكتنف القلوب وتُسقِم الصُّدور وترهق القلوب وتؤذي النفوس متىٰ يتخلص منها العبد؟ وكيف يستشفي من هٰذه الأمراض بكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ؟

والأمراض التي تُصيب القلب كثيرة، لكنها ترجع إلىٰ نوعين: مرض الشهوة، ومرض الشُّبهة، أمراض الشهوات وأمراض الشّبهات، ودواء المرضين الناجع والبلسم الشّافي لهما في القرآن الكريم.

القرآن الكريم فيه مداواة القلوب شفاء لما في الصدور، لكن متىٰ يُشفىٰ القلب من أمراضه وأسقامه؟ وكيف يتحقّق للعبد التّداوي بهٰذا القرآن العظيم؟ وهل يمكن أن يتحقَّق للقلب شفاءً بالقرآن وواقع القرآن مع الإنسان أنه لا يُجاوز تراقيه، يتحرّك به لسانه فقط أما قلبه فمحرومٌ منه؟ لا يمكن؛ بل لا بد أن يصل القرآن إلىٰ القلب، لابد أن يتحرَّك القلب مع آيات القرآن مع معاني القرآن مع دلالات القرآن مع

مضامين القرآن، مع مواعظ القرآن، مع تذكيرات القرآن، لابد أن يتحرك القلب بذلك حتىٰ تتحرك فيه الحياة، وحتىٰ تزول عنه الأمراض، وحتىٰ تزول عنه الأسقام، ولهـٰذا قدَّمتُ لو كان في الإنسان مثلا مرضًا في قلبه،أحيانا يشتكي بعض الناس من يخاوف أوهام، ويقول: أنا في الليل أفزع، أو أنا كذا، أو إذا مشيت في كذا أخاف من كل شي، أخاف من كذا، أتوقع تجد قلبه فيه مخاوف غير طبيعية، أوهام يعيش معها، ووساوس تُعِل قلبه وتمرضه، مثل هـٰذا يناسب أن يداوي نفسه ويتأمل ولو آية واحدة في مشكلته في مرضه يداوي نفسه بهـٰذه الآية، مثلا يقرأ قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٧٥﴾[آل عمران]، يكرِّر الآية حتىٰ يمتلئ قلبه خوفًا من الله ويذهب عن قلبه المخاوف التي يلقيها ويزرعها الشيطان في قلبه، إذا وجد من نفسه الضعف في التوكل علىٰ الله، يردد ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾[الطلاق:٣]، ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٣﴾[المائدة]، إذا وجد في نفسه ضعفًا في إيمانه يردد آيات يداوي بها نفسه ويحاول أن تصل هـٰذه الآيات في قلبه وأن تتمكن، والآية إذا وصلت القلب حصل الشفاء، الآية إذا وصلت القلب وتمكنت منه حصل الشفاء تحقق الثواب بإذن الله – تبارك وتعالىٰ– ولهـٰذا خَلْقٌ كثير لا يحصيهم إلا رب العالمين ﷻ زالت أمراضهم وشفيت أسقامهم، بعضهم بآية واحدة سمعها وزلت منه مرضه، أحيانا يكون مرضه الكفر بالله ﷻ فيتحوّل إلىٰ إسلام، أحيانا يكون مرضه النفاق فيتحول إلىٰ الإيمان، أحيانا يكون مرضه الفسق والفجور والمعاصي والآثام فيتحوّل إلىٰ استقامة وهدايهة وصلاح وعبادة لله تبارك وتعالىٰ.

والقَصص في هـٰذا كثيرة جداً كثيرة جدًّا كثير من النَّاس تتحدث أن هدايته بسبب آية تجد سمعها وأخذ يردِّدها يجيلها في نفسه تتكرر في قلبه،حتىٰ جعل الله ﷻ فيها هدايته وصلاحه.

الفضيل بن عياض من أئمة التابعين، أمضىٰ أربعين سنة من حياته وهو معدود في كبار المجرمين معدود في كبار المجرمين، كان قاطع طريق، وكانت القافلة بكاملها تخافه إلىٰ أن بلغ الأربعين، وليلة من الليالي أتىٰ إلىٰ البيت، كما ذكر في ترجمته في «سير أعلام النبلاء» وغيره، أتىٰ إلىٰ بيته يتسور البيت علىٰ عادة في أجرامه وعدوانه يتسوَّر البيت و هو يتسور البيت، إذا بصاحب البيت كان يقرأ القرآن في سورة الحديد وصل إلىٰ قول الله ﷻ: ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾[الحديد]، سمع الفضيل هـٰذه الآية ودخلت قلبه، و تأثَّر من لحظته تأثراً عظيما، و قال في ساعته : "بلىٰ"، أجاب ﴿أَلَمۡ يَأۡنِ﴾ قال: بلىٰ

جاء الوقت التي تخشع القلوب لذكر الله ونزل وعاهد نفسه أن يهاجر إلىٰ مكة و أن يبقىٰ فيها عابدًا لله فيها إلىٰ أن يموت، و ذهب إلىٰ مكة، آية واحدة حولت مساره إلىٰ أجرام إلىٰ عابد من العبّاد وصالح من الصالحين و من المساعدين، و بدأ يرتِّب وذهب إلىٰ مكة وبقىٰ فيها عابدًا إلىٰ أن توفاه الله ﷺ، و في مكة يأتي العلماء و المحدثون ويتلقىٰ عنهم العلم ويأخذ عنهم الفقه ويحفظ منهم الأحاديث، ولا تفتح الآن كتاب من كتب التفسير أو كتاب من كتب الفقه أو حديث أو غيرها إلا و تجد النقول العظيمة عن هـٰذا الإمام، قال الإمام الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ آية واحدة غيَّرت حياته.

ولهـٰذا أن ينبغي عن الإنسان أن يتفكر في أمراضه في أسقامه في مشاكله، ويبدأ يداوِي نفسه بالقرآن، مثلاً يكون الإنسان مُبتلىٰ بعض الناس يشتكي من أنه نضره يزيق، نفسه تتطلع للنظر للنساء، وربما يقصد أماكن فيها نساء للنظر وهو مبتلي بذلك، وتتحرك في أمور هو في صراع نفسه في الخلاص داوي نفسه بالآية ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور]، يكرّرها الإنسان ويتأمل فيها ويحاول أن تصل إلىٰ قلبه إذا وصل إلىٰ قلبه حصل الشفاء، المشاكل كلّها تتأتي بسبب عدم وصول القرآن للقلب، إذا وصل القرآن للقلب حصل الشفاء؛ فيبدأ يجاهد نفسه حتىٰ يصل القرآن إلىٰ قلبه، ويتفقَّد نفسه في أخطائه في مخالفاته، إذا كان متهاونا في الصلاة مقصِّر يقرأ آيات تذكره بمكانة الصلاة بمنزلتها يرددها ويسأل ربه - تبارك وتعالىٰ- أن يجعله من أهلها، وبهـٰذه الطريقة يحيا قلبه - بإذن الله -بهـٰذا الكتاب العظيم كلام ربِّ العالمين.

فهـٰذه طريقة نافعة عظيمة جدًّا بالمداواة بالقرآن ولعل كل واحد منا يستعين بالله تبارك وتعالىٰ ويبدأ بذلك مع نفسه، إذا كان الإنسان في عقوق لوالديه إذا كان العقوق لوالديه وتقصير في حقهما يقرأ:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

لا يقرأها ويمضي وكأن الأمر لا يعنيه يقف، إذا كان عنده تقصير يقف، ويتأمل ويتدبر، ويستعين بكتب التفسير،كلام أهل العلم وإذا وصلت الآية للقلب حصل الشفاء، إذ وصلت للقلب وتمكنت من القلب حصل الشفاء بإذن الله- تبارك و تعالىٰ- هـٰذه معنىٰ قول الله عَزَّوَجَلَّ وشفاء لما في الصدور أما مجرد التلاوة والهَذ وعدم التدبير وعدم التعقل لكلام الله ولمعاني القرآن الكريم، فهـٰذا لا يتحقَّق به

الفائدة المرجوَّة والثمرة المطلوبة التي ينبغي أن يغفر بها العبد مع هـٰذا الكتاب العظيم المبارك كتاب الله ﷻ.

الكلام عن القرآن وفضله وثماره وأثاره، و أيضًا الآداب التي ينبغي أن يكون عليها العبد المؤمن، الحديث في هـٰذا واسع وأنا تأخَّرت عليكم بالمجيء؛ بسبب الرحلة ونعتذر حقيقةً أشد الاعتذار من الأخوة القائمين علىٰ الواحة ومن الأخوة الحضور يعني أمرًا ليس باليد؛ لكن قدر الله ﷻ وما شاء فعل، وكثرة الكلام يُنسي آخره أوَّله، فلعلَّ في هـٰذا الكلام الذي سمعناه خير لنا ونفع وفائدة بإذن ربِّنا تبارك وتعالىٰ.

وأسأل الله الكريم ربّ العرش العظيم بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العليا وبأنه الله الذي لا إله إلا هو أن يجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدُورنا، وجلاء أحزاننا وذهاب همومنا وغمومنا، وأن يجعلنا جميعًا من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته، وأن ينفعنا بالقرآن، وأن يجعل القرآن حجه لنا لا علينا، وأن يوفِّقنا لتدبره علىٰ الوجه الذي يرضيه وللعمل به، وأن يجعلنا من أهل السعادة من أهل الغنيمة من أهل الفوز في الدنيا والآخرة، وأسأله -جل وعلا- أن يصلح لنا جميع ديننا الذي وعصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير و الموت راحةً لنا من كلِّ شر، وأسأله - جلَّ وعلَّا- أن يُصلح ذات بيننا، وأن يؤلف بين قلوبنا وأن يهدينا سبيل السلام، وأن يخرجنا من الظلمات إلىٰ النور وأن يبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وأزواجنا وذرياتنا وأموالنا وأوقاتنا، وأن يجعلنا مباركين أينما كنا.

وأسأله- جل وعلا - أن يجعلنا جميعًا من عتقائه من النار في هـٰذا الشهر الفضيل فإن لله ﷻ عتقاء من النار وذلك في كل ليله من ليالي رمضان، اللَّهُمَّ أصلح لنا شأننا كله واغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم و الأموات إنك أنت الغفور الرحيم.

والله تعالىٰ أعلم، وصلّىٰ الله وسلم وبارك وأنعم علىٰ عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

۞۞۞۞